المبدع الصغير ينهض:

تجربة مسرح الطفل في الجزائر عبر اليوتوب:

اكتشاف المواهب وإيقاظ عواطف الطفولة.

د. عبد الكريم جيدور

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير

اللغة العربية–الجزائر–

وحدة البحث اللساني وقضايا

اللغة العربية في الجزائر–ورقلة–

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/01/29	2020/07/26	2020/08/10

Abstract.

Little creative rising: YouTube Theater for children in Algeria, exploring talents and awakening childhood emotions.

Theatrical experience rises wonderful aspects inside the little child; it gives him a special state of present and mental concentration, which open up his natural emotions and imagination, and contribute by cooperation with the main processes to build the core of earlier creativity. Due to These qualities, we suggest to make an evaluative study about the theatrical projects belongs to Algerian children from YouTube web site. We hope this work can shows some positive sides of this experience, and propose new ideas and additional steps that contribute in the great traditions history of Algerian children's theater.

Key words:

Creative; little; Theatre; child; YouTube; Theatrical experience; exploration; talents.

Résumé

Le Petit créateur se lève: You Tube Théâtre pour les enfants en Algérie: explorant les talents et réveillant les émotions de l'enfance.

L'expérience théâtrale soulève des aspects merveilleux à l'intérieur du petit enfant; cela lui donne un état particulier de concentration et de présente mentale, elle ouvre ses émotions et son imagination naturelles, et contribue par sa coopération aux processus principaux qui constituent le noyau de la créativité antérieure.

En raison de ces qualités, nous suggérons de faire une étude d'évaluation sur les projets de Théâtre appartenant aux enfants algériens du site Web You Tube. Nous espérons que ce travail pourra montrer quelques aspects positifs de cette expérience, et proposer de nouvelles idées et quelque étapes supplémentaires qui contribueront à la grande tradition du théâtre pour les enfants algériens.

Mots clés:

Créative; théâtre; enfant; You Tube; expérience théâtrale; exploration des talents.

الملخص

تثير التجربة المسرحية جوانب مدهشةً في كيان الطفل الصغير؛ إنّها تمنحه حالة من التركيز والحضور الذهني المتقد، فتحرك عواطفه وخياله الطري إلى أقصى الحدود، وتضعه في قلب الانفعال الإيجابي مع الحُبكة والممثلين، كما تساهم في بناء الشخصية المتوازنة التي تتميز بحب الجمال، والنفور من العنف والعدائية. ومن أجل هذه السمات الهامّة نقترح في هذا البحث دراسة تقويميّة لظاهرة الأعمال المسرحية الموجهة للأطفال الجزائريين عن طريق موقع اليوتوب، للوقوف على الملامح الإيجابية في هذه التجربة الجديدة، واقتراح أفكار تساهم في تجاوز النقائص، والمضي قدما نحو خطوات إضافية على الطريق الموصل إلى الأهداف النبيلة لمسرح الطفل الذي له تاريخ عريق في الجزائر.

مـدخـل:

الطفل كائن يلعب[1]، والمسرح لعبة خاصة جدا وملهمة بالنسبة إليه. وهو مشغول تماماً في هذه اللعبة بركوب سفينة خياله للتعبير جسديّا ولغويّا عن كل ما هو موجود في عالمه ولا يجده في عالمنا. يثيره في هذه التجربة كل غريب وغير متوقع لكونه جزء جوهريا من سمات الجمال فالجميل دائما غريب[2].

وسواء أكنت مربِيّا أم متخصّصا كبيرا في المسرح يُفترض أن مشهد الأطفال الصغار وهم ملتحمون مع العمل المسرحي الذي يؤدونه أو يتابعونه سيؤثر فيك تأثيرا عميقا بحيث لا تستطيع أن تعرف مصدر هذا التأثير أو تتبين حدوده، وتلك هي روعة الطفولة، وذلك مبلغ العمق الذي يبلغه العمل المسرحيّ[3] المُبدِع من نفوسهم وعقولهم.

واللافت للاهتمام وجود مقاربتين أساسيتين يتمحور حولهما الجدل المعاصر في مجال التخطيط التربوي المحلي والدولي؛ المقاربة الصناعية التي ترى في تنشئة الطفل وتعليمه مرحلة أولى في السلسلة الإنتاجية التي تؤمّن اليد العاملة المؤهلة، والمقاربة السوسيو–ثقافية التي ترى بأن التعليم والإعلام وطرق التوعية الأخرى قادرة على تغطية فراغ أساسي وخطير يتمثل في ضمان الحدود المقبولة من التجانس الاجتماعي والقيم الإنسانية المشتركة.

وسط هذا الجدل يبرز المسرح بوصفه أب الفنون[4] ليساهم في تأمين مجالٍ طبيعي تنمو فيه الهوية الاجتماعية المشتركة في ظروف عاديّة، بعيدا عن الضغط و الإرغام، يتمكن الطفل من خلال الممارسة المسرحية؛ كممثل يؤدي دورا معينا، أو مشاهد يشجع الممثلين، أن يوضّح لنا بردود أفعاله التلقائية الكثير من الخبايا، ويساعدنا على حسم العديد من القضايا.

1. المميزات الفريدة للتجربة المسرحية:

إذا أنعمت النظر في جمهور متراص من الأطفال؛ بين الخامسة والعاشرة، وهم في خشوع ساحر يدعو إلى الغبطة سترى حالة استثنائية من التركيز والانتباه، تُطلق جملة فريدة من المهارات التي تمزج بين غريزة الفضول المشتعلة، والخيال الفائض اللامتناهي. وستدرك حينها أن كيان الطفل بكل مكوّناته مشارك في صناعة هذه التجربة العجيبة، وعلى حد تعبير الكاتب المسرحي الإسباني ألفونسو ساستره "هناك فرصة قائمة لكي يتطور البعد التوافقي للشخصية[5] الطفل ينمو ويتطور معرفيا ووجدانيا"، وتتحسن حالته النفسية ويتعدّل مزاجه بعد هذه التجربة بمستويات تدعو إلى الدهشة. كما أن اللعب من خلال الشخصيات والمفردات يُحرّر الكبت الطفولي الذي عادةً ما يتم تعويضه عن طريق "إضحاك الرفاق في الصف"

بتقليد المعلم، وسرد النكات، وهذه الظاهرة هي عبارة عن مسرح سري"غير شرعي"[6] توضح الحاجة الكبيرة لهذا الفضاء الحر بالنسبة لكل طفل في العالم.

1-1. التغذية المتكاملة:

يقدم المسرح تجربة ثقافية وذهنية فريدة[7]، فهو يحرك القلب والعقل في آن واحد، وينتج حالة من الابتهاج والتركيز تمزج بين الجوانب الوجدانية العاطفية والجوانب العقلية المنطقية، وهذا التوازن من الصعب تحقيقه في طرق التثقيف والتوعية الأخرى. ثم إن كثافة المؤثرات البصرية و الصوتية تساعد على تشكيل معاني الأشياء عند الأطفال[8]،وتمثل هذه التجربة فرصة هامة لتطوير الفهم والتصور في المرحلة الإبهامية والحسو-حركية. فضلا عن وظيفتها الاجتماعية[9] وهي المساهمة عن طريق الفنون في التربية والتوعية والتثقيف لبناء الأجيال الصاعدة.

1-2. الإبداع و توازن الشخصية:

تشير دراسات عديدة إلى الأثر المباشر بين المداومة على متابعة العروض المسرحية بمختلف أصنافها على الإبداع والابتكار والتوازن العام للشخصية. ونحتاج في هذه الجزئية إلى تأصيل مصطلحي لنميز بين:مسرح الأطفال الذي يصنعونه بأنفسهم، ومسرحٍ للأطفال يعده الكبار خصيصا لهم، فيساهم فيه الأطفال بدرجات متفاوتة[10]، وغالبا ما يقتصر دورهم على المشاهدة والهتاف والتصفيق. النوع الثاني يمثل تجربة مسرحية ثرية لكنه من أبعاد معينة فقير المعنى فيما ينميه فعليا داخل الطفل من المواهب، وما يحفزه عليه من الابتكار والخيال.

1-3. تخفيف الضغط والميول العدائية:

أبحاث أخرى تظهر معطيات مهمة عن دور المسرح في الأفق البعيد فيما يخص تخفيض الحمولة العدائية والغضب السلبي الذي يتأجج ويتراكم على نفس الطفل فيولد عنده ميولا واضحة للجريمة والعدوانية، يلعب المسرح هنا دور مجال تخفيف الضغط والتنفيس.

1-4. تقمص الأبطال:

بعد انتهاء المسرحية بلحظات ترى كل الأطفال قد بدأوا مباشرة في تقمص الأدوار، وتقديم صيغتهم الخاصة عن هذه الشخصية التي ستغرس جذورها بعمق في وجدانهم الطري. دراسات أخرى تلاحظ جزئية الضحك والتصحيح وتحذير الممثلين، من جملة الانفعالات المصاحبة لمتابعة العرض المسرحي[11]، بوصفها مؤشرات لمستوى التفاعل والتقمص عند الأطفال.

1-5. ملكة النقد الفني وشجاعة إبداء الرأي:

لا يمكن أن نستهين بذلك الجدل العارم الذي يثيره الأطفال حول المسرحية وأبطالها، وحول أداء الممثلين، فقد نجد في هذه الحوارات الطويلة مستويات من التحليل النقدي تستند إلى أدوات منطقية ومجال لا بأس به من التجريد والتصور، ونحن نؤيد في هذا المجال اقتراحات العالم السويسري جون بياجيه ومدرسته، ذلك أن الملاحظات الكثيرة والمستمرة تجعلنا نفترض

بأن نوع المادة المعروضة على الطفل قد يساهم في إطلاق مجموعة خاصة من العمليات الإجرائية يتوصل بها إلى فك الالتباس والغموض الذي يصادفه في ثنايا العرض.

ثم إن متابعة الأطفال والإنصات لحواراتهم يظهر جوانب أخرى بالغة الأهمية، من أهمها غياب الحواجز والطابوهات الاجتماعية التي يصنعها مجتمع الكبار شروطا قبلية لفتح النقاش أو استمراره، تجد مثلا أن الأطفال لا يبالون إطلاقا بعقدة الجنس؛ يتجادل الذكور مع الإناث بكل حرية، يتجاوزون أيضا عقدة الأكبر والأصغر؛ الكل يتكلم ويبدي رأيه.

ولذلك يبدو أن قوانين التعايش والتعاون التي تنشأ بصورة فطرية لدى مجتمع الطفل تنهار وتتداعى كلما تدخل فيها عالم الكبار بقوانينهم المعقدة والمرهقة والمرتكزة في كثير من الأحيان على التملق والمجاملة.

2. المادة المسرحيّة الموجهة للطفل الجزائري[12] عبر اليوتوب:

يظهر البحث في موقع اليوتوب زيادة مطردة للمادة المسرحية الموجهة للأطفال[13] عبر هذا الوسيط الرقمي التفاعلي واسع الانتشار. كما أن أغلب الأعمال المتاحة تم تسجيلها بطريقة عادية، غير احترافية، من طرف بعض المعلمين، أو بعض أولياء الأمور، ثم يتم رفعها دون معالجة عبر القنوات الشخصية المفتوحة في موقع اليوتوب. والحق أن الدراسة المفصلة لهذه الظاهرة تفتقر إلى معطيات متعددة التخصصات، كونها مجالا تحليليا واسعا، وسنقدم في الفقرات الموالية ملاحظات سريعة قد تساعد البحث المتخصص مستقبلا.

2-1. المواضيع الأساسيّة:

تستمد المواضيع من المنهج الدراسي في حد ذاته؛ هناك بعض النصوص المسرحية المقترحة في الكتب المدرسية. المصدر الثاني هو المناسبات المعلمية المُحتفى بها،و بالنظر إلى ارتباط العرض المسرحي المدرسي في الجزائر بعيد العلم فقد وجدنا عددا لافتا من الأعمال المرتبطة بهذا الموضوع في مختلف ربوع الوطن، مع ملاحظة أن موضوع العلم و الجهل واسع الانتشار في كل أقطار الوطن العربي، و حول العالم.

الموضوع الثاني الأكثر انتشارا في المادة المسرحية هو: الوطن؛ فنجد كعناوين: حب الوطن، وطني، بلادي الجزائر، أحب بلادي، العلم الوطني، شهداء نوفمبر، عيد الشهيد، مأساة على أرض العوسج، من عظماء الجزائر، الجزائر و أبنائها.

الموضوع الثالث هو القصص الخرافية و لا سيما قصص الحيوانات؛ منها على سبيل المثال: القرد و الصياد، سأصير شجرة، صديقي الكتاب.

الموضوع الرابع هو القصص الواقعية و كل ما فيه نقد للحياة اليومية و مظاهرها السلبية، حيث تستخدم أدوات الكوميديا العابثة للسخرية من الأوضاع الخاطئة و السلوكات المشينة التي يقترفها بعض أفراد المجتمع بما في ذلك المعلمون و الأولياء و التلاميذ أنفسهم.

بعض هذه الأعمال قام بإعدادها تلاميذ وطلبة في المتوسط و الثانوي، و فيها ملامح إبداعية و لمسة فكاهية جيدة رغم المبالغة المفرطة في النقد السطحي أحيانا، و هي من العيوب المزمنة في هذا المجال. من العناوين اللافتة في هذا المجال: طاعة الوالدين، الأمانة، الرشوة.

الموضوع الخامس هو القيم الحضارية والهوية؛ هناك عدد من الأعمال تطرقت إلى الهوية الإسلامية و التاريخ المجيد للجزائر الذي ساهم في هويتنا المميزة رغم اختلافنا العرقي، بعض الأعمال تُنجز سنويا حول القضية الفلسطينية، نذكر منها: دموع أطفال الجزائر، محاكمة قاتل الأطفال، دموع العرب.

الموضوع السادس هو إحياء التراث الأدبي المحلي و العالمي، رغم وجود أعمال عديدة للفرق المسرحية في هذا المجال إلا أن المرفوع على الموقع قليل جدا، على سبيل المثال: مسرحية أميرة الورد،ليلى و الذئب،سندريلا، بلاد العجائب،حمار الحكيم.

2-2. البناء اللغوي في الوسط الرقمي:

المسرحية نص مادته الأساسية اللغة. والنصوص المسرحية آلات كسولة[14]؛لا تستجيب بسهولة،عصيّة على الإيجاز تتطلب من القارئ تعاونا صادقا لتفجير طاقات المعنى[15]. والتجربة المسرحية تعتمد على الوسيط اللغوي بصورة مكثفة فخلافا للتوظيف اليومي الاعتيادي، يشترط المسرح عموما، ومسرح الطفل[16] على وجه الخصوص استخداما زائدا للغة الجسد، ولجوانب خاصة من اللغة كالطبقات العليا أثناء النطق، وضوح الأداء من حيث المخارج والصفات، النبر والتنغيم استخدام سرعات أدائية ونغمية متنوعة؛عند السخرية والتهكم ومحاكاة الأصوات.

التساؤل الرئيس الذي يعترضنا هو: كيف يظهر الجانب اللغوي عبر اليوتوب؟ هل تقدم خدمة الإعدادات (options) مساعدة تقنية مفيدة في تحسين تجربة المشاهدة؟ هل تفيد الوسائط عالية الدقة (HD) في استحضار تفاعلي قريب من الجو الواقعي للمسرح؟ إن هذه الأسئلة تحتاج إلى دراسات ميدانية أكثر تخصّصا، لكننا سنبني أجوبتنا المبدئية على ملاحظاتنا الشخصية وما سجلناه على الأطفال أثناء هذه التجربة.

يلاحظ بصفة أولية أن مستوى التشويش في الإشارة الصوتية كبير ومؤثر في العديد من المسرحيات الجيدة، كما يلاحظ أيضا أن معدل الأداء، أو السرعة الوسطية لإحداث النقلات أثناء الكلام غير منضبطة؛ وهذا المشكل له مصدران؛ مصدر الإعداد والتحضير للمسرحية من طرف الأطفال والمشرفين عليهم، فمن الواضح أن المسرحيات المدرسية قلما تتفطن إلى أهمية هذا الجانب في جودة الاستقبال، وبالتالي وضوح الرسالة، في حين أن المسرحيات المنجزة من طرف جمعيات وفرق محترفة (وهي قليلة العدد) تركز بوضوح على توحيد معدل تسارع الأداء بين الممثلين، والاستخدام الفني الجيد لتقنيات القطع والوصل، واستخدام الفضاء في تمديد الصوت، وغير ذلك من العناصر المساعدة.

أما المصدر الثاني فهو الإمكانات المتاحة لتحسين الإشارة الصوتية وتقليل الضجيج، والتحكم في تسارع الكلام، وغير ذلك من الإجراءات القابلة للتنفيذ عن طريق برامج حاسوبية متخصصة. اللافت للنظر –من وجهة نظر الخبراء في هذا المجال– أن البرامج العامة التي توفرها الشركات العالمية كمايكروسوفت(Microsoft) ومحرك البحث جوجل(Google) تسمح بمعالجة طفيفة وخارجية، أما المعالجة المعمقة للمضمون الصوتي فتحتاج إلى برامج خاصة تعد من طرف متخصصي الحوسبة مع مراعاة خصائص اللغة المعنية؛ وهنا تظهر مشكلة علاقة اللغات بالبرمجة الحاسوبية، وهي مشكلة عالمية. على سبيل المثال: يؤدي التسجيل الصوتي الرديء إلى طمس في بعض أجزاء الكلام، أو تحويرات مؤثرة في المعنى، وهذا يؤدي بدوره إلى غموض والتباس إضافي على مستوى المضمون.

يلاحظ أيضا أن الإعدادات التي يوفرها موقع اليوتوب مفيدة نوعا ما؛ إذ يمكن إعادة المقطع أكثر من مرة، رفع مستوى الصوت، وكذا تبطيء أو تسريع الأداء. كما يمكن تحقيق نتائج أحسن عن طريق تحميل العمل المسرحي وعرضه في أحد برامج تشغيل الفيديو عالية الجودة. وقد يساعد الطفل على المتابعة والاستفادة القصوى إضافة النص المكتوب إلى الفيديو وهي خاصية يتيحها موقع اليوتوب، لكنها تحتاج معالجة خاصة ومراعاة التزامن وهو عمل دقيق.

2-3. مكونات المحتوى:

أولا: المحتوى المعرفي:

يقال إن المسرحية المهمة تتجاوز موضوعها، فالمسرح يشترط على المتلقي إنشاء مشهده التخيلي الخاص[17]، لذلك ترتسم على وجوه الأطفال أثناء الأداء المسرحي، ووقت المتابعة مجموعة مميزة جدا من التعابير التي تؤكد أنهم في رحلة شاقة نحو المعنى التخيلي الذي يرسمونه، وعندما تسأل الأطفال خلال هذه الحالة وبعدها مباشرة تكتشف أنهم قد أجروا بالفعل تغييرات حاسمة على النص؛ أصبحوا هم الأبطال، لديهم مظهر مختلف، قرارات جديدة، وبالتالي نص إبداعي كامل لا ينقصه إلا الانبثاق والتحرير.

من جهة أخرى، نحن نعيش وسط مجتمع المعرفة، أو في نقطة معينة منه على أقل تقدير، وهكذا ينبغي أن يكون للمعلومات ومستجدات الحضارة ومفاهيم الحياة الجديدة وطرقها وموقفنا من ذلك كله أهمية بالغة. وعندما تنقل هذه المعطيات عن طريق الصورة المؤثرة في حلة مسرحية معبرة يكون احتمال اندماجها ضمن المكون المعرفي للطفل أسرع وثمارها على ذاكرته اليافعة أقوى وأرسخ.

موضوع العلم مثلا تم التطرق إليه من زوايا عديدة؛ أهمية العلم، فضله الديني والاجتماعي، تأثيره على حياة الإنسان مساهمته في البناء والتطوير وإنقاذ الناس من الفقر والجهل. رغم ذلك، لا تغطي الأعمال المنجزة في هذا الموضوع كل الجوانب المرتبطة به في حياتنا المعاصرة، فهناك إشكالات معقدة وخطيرة يرتبط حلها على المستوى المتوسط والبعيد بتكوين وعي مبكر حولها عند العقول الطرية التي ستخوض غمار البناء والتنمية في المستقبل.

يدخل في الاعتبار السابق الأعمال حول التكنولوجيا وطرق التعلم والتعليم الجديدة فهي قليلة جدا، كذلك الحال مع مشكل نقص الإبداع والاختراع والعقلية الاستهلاكية التي تفشت في مجتمعاتنا، وكذا دور التفكير العلمي والتناول المنطقي للظواهر في حل المشكلات وتحسين الحياة. نفس الملاحظة فيما يخص العلاقة بين التطور التقني ومظاهر تلوث البيئة والاحتباس الحراري. كلها مواضيع مفتاحية كبيرة تقع في منطقة حرجة على حدود اتصالنا أو انفصالنا مع الحضارة العالمية المعاصرة التي نحن جزء منها.

ثانيا: المحتوى القيمي و الثقافي:

ينظر الكثير من المربين إلى المسرحية بوصفها أداة فعالة وسلسة لتحقيق مكتسبات على الصعيد الأخلاقي لتأسيس قناة تمر عبرها منظومة القيم الحسنة في حياة الطفل, وهذا يفسر طغيان هذا النوع من الأعمال في ما تنجزه المدارس، وفي أجزاء واسعة من أعمال الفرق والجمعيات المسرحية.

كما يرتبط التناول القيمي في كثير من الأحيان بمعطيات ثقافية مختلفة، أبرزها استغلال الفلكلور الشعبي في تأصيل الظواهر وتحديد المواقف النهائية عن طريق الحكم والأمثال الشعبية، وكذا استثمار التراث الفني في غرس المعاني الفاضلة بواسطة جمالية الأغنية والأداء الصوتي المعبر.

يبرز الوسيط الرقمي في هذا المجال كونه منصة ملائمة لتعزيز كلا الجانبين، والتفكير في زيادة الترابط والتلاحم بينهما؛ إن الصورة تنقل قطعة محاكية من زمن ماض إلى زمن حاضر، ونعتقد أن زيادة الاعتناء بالجوانب التفصيلية في مضمون الحوار والطرق الحركية للأداء وملابس الممثلين والديكور العام للمسرح، إضافة إلى قضية الترويج والإشهار، كل هذا قد يمنحنا فرصة حقيقية للاستفادة من ثمار هذا المجال، هذه الثمار التي تتعدى الجانب التربوي والتوعوي الضيق لتصل إلى جوانب المثاقفة والإشعاع الحضاري وتشجيع الآخرين على زيارة بلادنا لمشاهدة كل الثراء والتنوع الفني والأدبي الذي عندنا؛ أعتقد شخصيا أن الدراسات الجادة حول الأزياء الشعبية في الفترات التاريخية السابقة غير مستوفية، كما أننا لم نستفد كما يجب من الطاقة الإبداعية الهائلة المختزنة في تراثنا الشعبي من القصص والأمثال والحكم والفكاهات.

ونحن على قناعة أن هذه المادة يمكن أن تحُل العديد من مشاكل فقر النص وتحجره في الإبداع المسرحي والدرامي الجزائري المعاصر، لأن اللغة في نهاية المطاف هي مرآة للشعب، وهي اختصار لتاريخه الطويل في تشكيل فسيفسائه الفريدة عن طريق الكثير من الصراعات والنضالات المريرة، وهذه المزايا هي كنوز لا تقدر بثمن من حق الجيل الحالي أن يطلع عليها ويحوز على منافعها.

2-4. دورة الإرسال و الاستقبال عبر الوسيط الرقمي:

عندما يدخل العمل المسرحي إلى الفضاء الرقمي يصبح مادة رقميّة تنطبق عليها خصائص هذا العالم الافتراضي ومميزاته، لذلك يهمنا أن نجيب على تساؤلات مهمة حول دورة التواصل الجديدة التي تنشأ عبر اليوتوب؛ أين يكون الطفل مشاهدا يستقبل رسائل معينة بطريقة مختلفة عن الحضور والمعايشة الواقعية على مدرجات المسرح.

والنقطة الأساسيّة أننا بإقرار الفوارق الماثلة بين التجربتين الكلاسيكية والرقمية لا ينبغي أن نُهمل بصورة قبلية الإضافات الهامة للنوع الثاني؛ فمن القضايا الملحة التي نود التنويه بها أن تجربة مشاهدة المسرحية في البيت أو في المدرسة عبر الحاسوب تطلق بدورها جملة من العمليات المساهمة في نمو وعي الطفل الإبداعي، فقد لاحظت شخصيا على عينتين مختلفتين أن الطفل يتحفز بصورة سريعة لتقليد العمل المسرحي وتمثيل المسرحية لعرضها على أفراد العائلة، أو لعرضها على الهواء الطلق في أماكن اللعب. وهذا يؤكد مرة أخرى دور هذه الوسائط في إيقاظ المبدع الصغير الذي نخدره ونهيل عليه أتربة الفناء بطرقنا الروتينية في التربية والتعليم والإعداد الأسري.

لقد لاحظت أن أبسط اهتمام يبديه الكبار يمكن أن يمنح الطفل طاقة هائلة ليجتهد طوال ساعات، بل طوال أيام، في الإعداد الجاد والمنهك للعمل المسرحي الذي يصبح قضية أساسية في يومياته.

وقد كان هناك جدل طويل مع السادة المعلمين والأساتذة حول هذه القضايا؛ فمنهم من يثير بصورة مفرطة في التعميم ارتباط الإعداد للمسرحيات بحالة الفوضى والاضطراب التي تصيب الفصل الدراسي وربما المدرسة بأكملها، وهذا صحيح لو كنا نقوم بذلك كل أسبوع، أو مرة في الشهر، ونحن بعيدون عن ذلك كل البعد. نفس الشبهة تثيرها الأسر: إذا أراد

الأطفال تمثيل المسرحية فسيقلبون البيت رأسا على عقب. وهذا صحيح فقط إذا غبنا عنهم ولم نظهر لهم أي اهتمام بما هم منهمكون فيه، فغالبا ما نفضل الطريق السهل، بمعنى أن تستمر الحياة في روتينها الممل بدل أن ننفض عن أنفسنا أغبرة الكسل والفشل و نبادر إلى إسعاد أطفالنا بملاحظات مشجعة ونصائح ثمينة.

لاحظت أيضا أن هذه التجربة قد تكون موردا هاما لمراجعة النظريات العلمية المعمول بها في مجالات التربية وعلم النفس واللسانيات بفروعها؛ يُبدي الطفل استعدادت كبيرة لبذل جهود إضافية في سبيل إتقان الدور؛ فقد يَقبل دون تذمر قراءة النص المسرحي الذي تستخرجه له مكتوبا، ويثابر على قراءته بعناية حرفا حرفا، ويرهقك بأسئلته الغزيرة عن كل الجوانب اللفظية والمعنوية والمفاهيمية، علما أن هذا الطفل نفسه كان يتملص من قراءة أربعة أسطر "سهلة ومختارة بعناية" في كتاب القراءة! وقد يكون لديه مشاكل حقيقية كعسر القراءة، أو بعض مشاكل نطق الحروف.

من جهة أخرى تبدو مستويات النمو شديدة الوضوح عندما يتابع أطفال من أعمار مختلفة عملا مسرحيا عبر اليوتوب الطفل في عمر الرابعة والخامسة لا ينظر تقريبا إلى الشاشة، تجده يوزع نظراته بين كل المحيطين ويحاول أن يقلد ردود أفعالهم، ستجده بعد متابعة العمل عدة مرات قد اكتسب خزانا كاملا جديدا بالكامل من المهارات الجسدية والذهنية إضافة إلى قاموس من المفردات سابق لأوانه. الطفل في عمر السادسة يرهقك بالأسئلة حول كل الأشياء؛ سيمطرك بوابل لا ينتهي من الاستفسارات التعليلية: لماذا؟ ما به؟ ما بها؟ ما بهم؟ إلى متى؟ كيف وصلوا؟ كيف طاروا؟ متى تأتي الطفلة الأخرى؟ لاحظت شخصيا أن الإناث أشد إلحاحا في التساؤلات التعليلية من الذكور، وأفترض –مبدئيا– أن لهذه الميزة علاقة ببزوغ الكلام التعبيري عندهن في فترة مبكرة مقارنة بالذكور الذين يطرحون أسئلة كثيرة أيضا، لكنها تميل إلى النمط البرهاني؛ لو فعلوا كذا لكان أحسن؟ لا أصدق! هل يطير الإنسان؟ هل الشيطان أسود اللون؟...هذه أسئلتهم، وهذه عقولهم الغضة الطرية كيف تبدو أرضا خصبة للإبداع والتفكير النقدي والشجاعة الأدبية.

3. تقييم التجربة المسرحية الموجهة للطفل الجزائري عبر اليوتوب:

3-1. المؤشرات الإيجابية:

أولا: الاكتشاف المبكر للمواهب:

كل طفل يخبئ في كيانه مبدعا كبيرا يحتاج إلى تحفيز وإيقاظ، وككل بذرة تحتاج الموهبة إلى أرض صالحة وتربة خصبة، أو بعبارة أخرى إلى شروط معينة للنمو والإثمار، وكما أشرنا من قبل، يعد الاهتمام بالجانب الإبداعي وخاصة الإبداع الفني والأدبي عند الطفل ممارسة ضرورية لما ثبت حول علاقتها الطردية مع السلوك العدواني وتزايد الميول الإجرامية لدى الشخص، فقد يفرغ الطفل اليتيم أو المحروم أو ذو الظروف النفسية الخاصة طاقة كبيرة في هواية يحبها ويبرع فيها، قد تصبح مهنته التي يعتاش منها، ومنطقة الأمان التي يستقر فيها فيحظى بخصوصيته ويتعرف فيها على شخصيته. وبصورة عامة، فإن الفرد الذي يعكف على شيء ينجزه يكون راضيا وذا استقلالية عالية وتقدير ذاتي ممتاز.

أهم ما يميز العمل المسرحي في اليوتوب أنه خاضع لخصائص هذا الوسيط؛ فهو مجاني، متاح لشريحة واسعة ومن كل الأعمار، ناطق بكل اللغات واللهجات، يظهر كل الثقافات والتنوعات، سهل التشغيل، تفاعلي، يشجع المبادرة الفردية يشجع التنافس والإبداع[18]. وهذا يمنح فرصة أكبر لاكتشاف المواهب المختلفة عند الأطفال، من خلال ملاحظة ردود

أفعالهم، وتسجيل مواقفهم بعد المشاهدة، وكذا من خلال تبني مسابقات لأحسن الأعمال والأداءات المسرحية عن طريق اليوتوب؛ في هذه الحالة نحقق مكتسبا تربويا مندمجا؛ حيث نعوّد الطفل على التعامل مع التكنولوجيا الحديثة، ونفتح أمامه الفرصة لعرض مواهبه في التأليف والأداء وتصوّر الديكور و إعداد الملابس، كما نفتح أهم أبواب تفتق المواهب وهو التنافس الإيجابي بين المبدعين الصغار وبناء أسس التواصل والتكامل بين أفراد هذا المجتمع الصغير.

ثانيا: مصدر إمداد ودعم للتربية المجتمعية:

تؤكد الدراسات العديدة أن الأطفال يقضون أوقاتا طويلة في استخدام الوسائط التكنولوجية الحديثة. وفيما يخص موقع اليوتوب يفيد موقع الألكسا(Alexa) الرائد في إحصاءات الإنترنت أنه يحتل المرتبة الثانية عالميا ضمن قائمة الخمسمائة موقع الأكثر زيارة، ويحتل نفس الرتبة في قائمة المئة موقع الأكثر زيارة في الجزائر.

في ضوء هذا الإقبال الكبير، تتحدد العديد من الأولويات والتدابير الواجب اتخاذها للمسارعة في استغلال الجوانب الإيجابية من هذه الوسائط، وتحقيق وعي نوعي واستباقي يحافظ على الأطر الضرورية لنمو الأطفال وتدعيم مكتسباتهم.

ثالثا: أداة مساعدة لتحقيق المكتسبات التعليمية:

يتم التعلم المعاصر خارج الفصول الدراسية أكثر من داخلها، وتزداد الدعوات و المطالبات بأن تحاول المدرسة تجديد أنماطها في التعليم والتجاوب مع معطيات الفترة الراهنة، فمن الواضح أن التلميذ يعيش المفاصلة الشديدة بين مستوى التعليم التقليدي، وما يمكنه أن يحصل عليه بواسطة الإنترنت مثلا. وعلى الرغم من أن هذا التصور ينطوي على أخطاء أساسية إلا أن ميول الطلاب والتلاميذ وتطلعهم إلى نمط تعليمي دينامي يناسب عصرهم هو أمر منطقي وينبغي أخذه بكل جدية. لأن نتيجة التعلم يحددها كفاءة المعلم من جهة، وما ينجزه المتعلم من جهة أخرى.

ويمكن أن يساعد هذا المورد في تقديم المادة المعرفية بطرق غير تقليدية، بما في ذلك التمثيليات التي يطالَب التلاميذ بإعدادها كمحاكاة للمواد الدراسية، وقد طبقت بعض المدارس أفكارا تربوية تنص على تحويل المواضيع العلمية إلى قصص وتمثيليات يؤديها الطلاب؛ بعض الطلاب يُعدون نصا حول نشأة الخلايا في جسم الإنسان، أو حول البروتينات، أو حول النظريات الفيزيائية الأساسية، كما قدم أحد الأساتذة عبر اليوتوب مقاطع له مع طلابه في تمثيليات غنائية تعلم المفاهيم الرياضية والهندسية الأساسية.

بناء على ما سبق نقول بأنه إذا كان تقريب الموضوعات العلمية البحتة ممكنا عن طريق التمثيل القصصي والمسرحي عبر اليوتوب وغيره من المواقع فإن تقريب المواضيع الأدبية والتاريخية والثقافية ممكن بدرجة أكبر.

رابعا: منصة إعلان وتعريف بالقواسم الثقافية والحضارية المشتركة:

مشاهدة العرض المسرحي في نطاق محلي داخل مدرسة أو قاعة للعروض يعطيك قطعة واحدة من اللوحة، أما ما يقدمه لك اليوتوب فهو لوحة متكاملة تظهر كل الطبوع والتقاليد واللهجات والتنوعات الهائلة التي تطرز الجغرافيا الجزائرية. كما يظهر أيضا الثراء الثقافي الإنساني، والجوانب المدهشة من حياة الأمم والشعوب، تلك الجوانب التي كادت تندثر في الأنواع الفنية المعاصرة خاصة الدراما التلفزيونية والسينما.

3-2. العوائق والنقائص:

أولا: النزعة الفردية:

تظهر معظم الأعمال ميولا فردية غير مكترثة بالعوامل التي تضمن انتشار المسرحيّة على نطاق واسع. وتهيمن هذه النزعة على كل مراحل الإنجاز؛ كتابة السيناريو، توزيع الأدوار، التدريب، الإخراج، كما تظهر أيضا في عملية التصوير والرفع في الإنترنت.

ونحن نعلم من خلال معايشتنا للعمل التربوي في المدارس أن التنظيم لهذه الفعاليات يقع على عاتق معلم أو أستاذ واحد، غالبا ما ينجزه على قاعدة ملء الفراغ بأي شيء متاح.

ثانيا: الارتجال ونقص الإعداد:

يتم إعداد المسرحيات المدرسية في ظرف وجيز، لا يتعدى الأسبوع أحيانا، ومن المستحيل الخروج بعمل جيد ومتكامل في هذه المدة القياسية، يضاف إلى ذلك افتقار معظم الفرق والجمعيات المسرحية للعتاد والتجهيزات التقنية الاحترافية بسبب قصور في التمويل. وفي كل الأحوال، يمكن للمسرحية المعدة في ظل إمكانات بسيطة، على قاعدة نص جيد يلائم الفئة العمرية المستهدفة أن يحدث التأثير المطلوب، من شواهد ذلك نجاح مسرحية "العلم والجهل" في استقطاب متابعة هامة وعدد جيد من التعليقات رغم أنها جهد مدرسي لم يستخدم الكثير من المؤثرات والمتطلبات المادية.

ثالثا: متلازمة المناسبات:

ترتبط معظم الأعمال المسرحية الموجهة للطفل بالمناسبات؛ الوطنية والدينية على وجه الخصوص، لاحظنا هذا التلازم عند الكلام عن المواضيع، وهو مظهر جدلي فيه جوانب إيجابية وأخرى سلبية؛ فمن إيجابياته الربط بين المناسبة وتاريخها السنوي وهذا مكسب معرفي وثقافي إضافة إلى ما يحمله من مضامين للنص المسرحي. ومن سلبياته تضييق مجال الإبداع المسرحي وحصره في مواضيع معينة، وذلك قد يكوّن ترابطا آخر ينص على أن المسرحية لا تكون إلا في مواعيد وتواريخ محددة وهذا غير صحيح.

5. النتائج والتوصيات:

تبين لنا الفقرات السابقة أننا أمام مورد ثقافي وتربوي وتوعوي ثري ومتنوع، يمكن استثماره لإحداث تأثيرات ملموسة في مجالات حيوية من حياتنا، وحياة أطفالنا في المقام الأول.

ولكي نطور نظرتنا لهذا المورد الجديد نحتاج إلى فهم مفصّل لطبيعته وخصائصه وطرق استخدامه المثلى، ومن أفضل الطرق وأقصرها لبلوغ هذا الفهم تحريك دواليب البحث العلمي على مستوى الجامعات في التخصصات المعنية لرصد هذه الظاهرة وتجميع المعطيات الموثوقة بشأنها، وتغيير الأفكار السلبية وأحادية الجانب التي تقلل من قيمتها.

إن البحوث والفعاليات العلمية والثقافية المقبلة يمكن أن تؤدي العديد من الخدمات في هذا الإطار، ويمكنها أن توضح مجالات الاستفادة وسبل التكامل والتنسيق بين الأنماط الكلاسيكية للعرض المسرحي، والأنماط الجديدة والمتجددة، وفيما يلي مؤشرات مفتاحية للجوانب التي يفترض أن تغطيها هذه الجهود:

أولا: جمع وتنظيم المادة المسرحية المتوفرة في وسائط الإعلام بكل أنواعها.

ثانيا: التصنيف الموضوعي للأعمال، وبناء مقاييس جيدة لتحديد مضمونها، ويمكن لهذا العمل أن يأخذ في الحسبان المقاييس الآتية كخطوة أولى: المواضيع، العناوين، ملخص الحبكة، الفئة العمرية المستهدفة، الجهة المنتجة، زمن العرض، الشخصيات، مستوى اللغة، موقع الوصول.

ثالثا: الإعلان المسبق والإشهار.

رابعا: تشجيع المتابعة والدراسة العلمية.

خامسا: تحسين المعالجة الرقمية الصوتية والمرئية.

---

[1] – ألفونسو ساستره،مسرح الطفل،تر:إشراق عبد العادل،دار المأمون للترجمة و النشر،بغداد–العراق،ط2007،2م،ص22،19.

[2] –عبارة شائعة في الأدب العالمي،ينسبها البعض إلى الأديب الفرنسي الكبير بودلير. أنظر:جان بيير رينجير(Jean–pierre Ryngaert)،قراءة المسرح المعاصر،تر:حمادة إبراهيم،منشورات وزارة الثقافة،القاهرة،2004م،ص3.

[3] – ترجع الجذور الأولى لمسرح الطفل في الوطن العربي إلى تمثيليات خيال الظل، و هي فلكلور صيني جلبه المغول خلال غزوتهم للأمة الإسلامية، و اشتهر في هذا الفن بعض البغداديين، لعل أبرزهم: الحكيم شمس الدين بن محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي. تلى ذلك فن الأراجوز (أو القراقوز)، ثم ظهرت مسرحيات الشعر الغنائي مطلع ق20م، و شرع في عرض مسرحيات خاصة للأطفال ابتداء من مطلع الستينات. أنظر: محمود الضبع: أدب الأطفال بين التراث و المعلوماتية، ص233–236.

[4] –يجمع الباحثون أن المسرح هو أقدم أشكال التعبير الفني التي أنتجها البشر،يجادل بعضهم أن أصوله ترجع إلى العهد الحجري،رغم أن أوثق الآراء تؤكد ظهوره الفعلي كنمط فني عند الإغريق، اما مسرح الطفل فيعد حديثا جدا؛ظهر أول مسرح للأطفال في باريس سنة1884م على يد المربية الكبيرة مدام ستيفان(Stevan DK Genlets)التي كانت تكتب النصوص و تخرجها و تشرف على كل أطوار الأداء،يعتقد أيضا أنها أول من استخدم المؤثرات في العمل المسرحي.سنة1903مظهر أول مسرح في الولايات المتحدة أشرف عليه الاتحاد التعليمي لمدينة نيويورك، و في العام1918م ظهرت في لندن عروض فرقة بن جريت(Ben Gret) و بعدها بعشر سنوات(1927م) انطلقت فرقة المسرح الاسكتلندي للأطفال. و تم في ألمانيا الديمقراطية افتتاح(مسرح العالم الفني)وهو أول مسرح للأطفال،كانت فكرته تخفيف الآثار النفسية للحرب العالمية الثانية. أنظر:حسن عبد المنعم حمد،المسرح المدرسي و دوره التربوي.العلم و الإيمان للنشر و التوزيع،مصر،2007م،ص47–48.

[5] – ألفونسو ساستره،مسرح الطفل،تر:إشراق عبد العادل،دار المأمون للترجمة و النشر،بغداد–العراق،ط2007،2م،ص19.

[6] – المرجع السابق، ص22.

[7] – يتطلب إنجاز مسرحية جيدة للأطفال مراعاة العديد من الجوانب المعقدة و المتعارضة أحيانا، إذ يشترط أن يكون الهدف واضحا و قابلا للفهم و الاستفادة، و يستحسن معالجة الهدف مباشرة، و التقليل من الرمز، و الابتعاد عن المتناقضات العقلية و اليقينيات الغيبية و تشويه المفاهيم و المعتقدات، أو الاستهانة بثوابت الوطن و المجتمع، و الابتعاد تماما عن الدعوات المغرضة و النزعات المتطرفة و العنصرية. و يفترض في العمل المسرحي الجيد أن يثري الطفل معرفيا و وجدانيا، و أن يظهر له أبطالا غير متناقضين و مثلا عليا للاقتداء بها، و يفضل أن تخاطب الطفل بدق و واقعية، و أن تستخدم الفكاهة و السخرية بطريقة ملائمة. أنظر: فهيم مصطفى:الطفل و الخدمات الثقافية:رؤية معاصرة لتثقيف الطفل العربي. الدار العربية للكتاب. ص123–124.

[8] – حسن عبد المنعم حمد،المسرح المدرسي و دوره التربوي.العلم و الإيمان للنشر و التوزيع،مصر،2007م،ص51.

[9] –أحمد علي كنعان،أثر المسرح في تنمية شخصية الطفل،مجلة جامعة دمشق،مج27،ع1–2011،2م،ص89.

[10] –ألفونسو ساستره،مسرح الطفل،تر:إشراق عبد العادل،دار المأمون للترجمة و النشر،بغداد–العراق،ط2007،2م،ص15–16.

[11] –حسن عبد المنعم حمد،المسرح المدرسي و دوره التربوي.العلم و الإيمان للنشر و التوزيع،مصر،2007م،ص50.

[12] –للمسرح تاريخ عريق في الجزائر، فمنذ مطلع القرن20م كانت هناك تمثيليات مسرحية تعرض في المقاهي و الساحات العامة،وكان أغلبها يسجل في ديسكات لقيت انتشارا طيبا، و قد لخص الأستاذ مصطفى كاتب سمات المسرح الجزائري في بواكيره الأولى في الملامح السبعة الآتية:

1–مسرح شعبي نشأ في المقاهي و الأحياء القديمة.

2–مسرح غنائي،يراعي أذواق الجمهور في هذه الناحية.

3-مسرح قائم بصورة أساسية على الفكاهة و المواقف الهزلية.

4-مسرح معبر عن الثقافة الشعبية البسيطة،بعيد عن أهل الثقافة و الأدباء المتخصصين.

5-يكتب الممثلون نصوصهم بأنفسهم،وغالبا ما يتم ذلك بطريقة جماعية.

6-يعتمد كثيرا على الارتجال و مشاركة الجمهور

7-اعتمد في كثير من أعماله الناجحة على اقتباس الآداب العالمية،من ذلك مثلا أعمال كل من رشيد قسنطيني و عبد الرحمن كاكي. للمقارنة أنظر:علي الراعي،المسرح في الوطن العربي،مجلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب،الكويت،ع1979،25م،ص459-462.

[13] – هناك شروط أساسية ينبغي مراعاتها في الكتابة المسرحية الموجهة للأطفال، تنص على تحديد الفئة العمرية، مراعاة خصائص النمو والميول، اختيار المستوى اللغوي المناسب لكل من السرد و الحوار. من جهة أخرى يحبذ تقليل عدد المشاهد و الفصول، تحديد الأفكار، تبسيط العلاقات في بناء الأحداث و الشخصيات، تجنب كثرة الشخصيات السلبية، التقطن إلى الحوار الممل، تجنب الأسلوب الوعظي، اعتماد الخيال و لغة الحضارة و توظيف المؤثرات و الإيقاع. أنظر: فهيم مصطفى:الطفل و الخدمات الثقافية:رؤية معاصرة لتثقيف الطفل العربي. الدار العربية للكتاب. ص113.

[14] –الوصف للناقد الإيطالي أومبرتو إيكو(Omberto Eco،1932-2016م)، و العبارة كاملة تقول:«النص يمثل آلية كسولة (أو مقتصدة)تحيا من قيمة المعنى الزائدة التي يكون المتلقي قد أدخلها(إلى النص)» أنظر كتابه:القارئ في الحكاية؛التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية،تر:أنطوان أبو زيد،المركز الثقافي العربي،بيروت،1996م،ص63.

[15] – جان بيير رينجير(Jean-pierre Ryngaert)،قراءة المسرح المعاصر،تر:حمادة إبراهيم،منشورات وزارة الثقافة،القاهرة،2004م،ص6.

[16] – يميز بعض المختصين في مسرح الطفل بين المسرحية السلوكية التي تهدف إلى توجيه الطفل نحو السلوك القويم، و المسرحية الأخلاقية التي تتضمن الدعوة إلى القيم و المبادئ السامية. أنظر: فهيم مصطفى:الطفل و الخدمات الثقافية:رؤية معاصرة لتثقيف الطفل العربي. الدار العربية للكتاب. ص123.

[17] – جان بيير رينجير(Jean-pierre Ryngaert)،قراءة المسرح المعاصر،تر:حمادة إبراهيم،منشورات وزارة الثقافة،القاهرة،2004م،ص34-35.

[18] – ميرزا جاسم خليل، وسائل الإعلام و دورها في التوعية الأمنية: الوسائل التقليدية، الوسائل الحديثة، الشبكات الاجتماعية. ضمن أبحاث الحلقة العلمية حول: التوعية الأمنية، رؤية مستقبلية. السودان:2-2013/12/4م. ص15.